المفاضلة الإجناسية بين الشعر والنثر عند ابن رشيق القيرواني

أ. لعيب ويزة

جامعة تيزي–وزو

إن قضية المفاضلة بين الشعر والنثر من القضايا التي أولاها النقاد اهتماما بحيث شغلت حيزا كبيرا من الدراسات النقدية، إذ انقسم النقاد إلى قسمين متعارضين: أحدهما يمجد الشعر ويرفعه على النثر، وثانيهما يحط من قدره أو يرى النثر أشرف من الشعر أو أرفع قدرا منه، وقد طال الجدل بين هذين الموقفين لذلك سنحاول رصد آراء ابن رشيق في محاولة استجلاء علاقة الشعر والنثر في التراث النقدي والوقوف عند البنية الشكلية والخصائص التي ينفرد بها كل خطاب ويميزه من النوع الأخر «فكان الدين حينا أو التاريخ حينا آخر والناصية الفنية مرة ثالثة العدة التي لجأ إليها الفريقان في البرهنة على ما ادعيا»[1] وقد تناول أبو حيان التوحيدي قضية العلاقة بين النثر والشعر إذ رأى أن منشأ هذه القضية فلسفي الطابع، ولاحظ أن الذين يفضلون الشعر على النثر أكثر من الذين يفضلون النثر على الشعر، وعرض لآراء النقاد وللحجج والبراهين التي يعتمدونها، فالذين يفضلّون الشعر يفضلونه من أجل أبرز مزيّة فيه وهي الوزن، كأبي سليمان المنطقي الذي يرى أن النظم ممّا تتقبّله النفس أكثر ممّا تتقبل النثر، ذلك لأن «النظم أدلّ على الطبيعة لأنه من حيّز التركيب، والنثر أدلّ على العقل، لأنّ النثر من حيّز البساطة، وإنّما تقبلنّا المنظوم بأكثر من تقبلنا المنثور لأنّا للطبيعة أكثر منّا بالعقل والوزن معشوق للطبيعة والحس»[2] فالنفس العربية تميل لما يوافق طبيعتها

ويتواءم مع عاداتها وتقاليدها، وكانت إجابة أبي حيان التوحيدي في كتابه "العوامل والشوامل" عن سؤال مسكويه المتعلق بالنظم والنثر ومرتبة كل منهما، حيث يقول: «إن الأكثرين قدّموا النظم على النثر، ولم يحتجوا فيه بظاهر القول، في حين قدم الاقليون النثر وحاولوا الحجاج فيه»[3]. وهذا لانتشار النظم واتساع إطاره لما له من تأثير على النفس على خلاف النثر الذي ضيق مجال إبداعه لأنه مرتبط بأسباب الحضارة والتمدن.

وقد أدلى الحاتمي بدلوه في موضوع المفاضلة بين الشعر والنثر، وفضل الشعر بصياغته يقول: «وأولى هذين بالمزية والقدم المتقدمة المنظوم، فإنّه أبدع مطالع وأنصع مقاطع، وأطول عنانا، وأفصح لسانا، وأنور أنجما، وأنفذ أسهما، واشرد مثلا، وأسير لفظا ومعنى»[4] إن تمتع الشعر بخصائص وسمات كالوزن والقافية وتوظيفه اللغة بطريقة تمنحه مميزاته على كل المستويات، كان الحد الفاصل بين الشعر والنثر، الذي يعطي الأفضلية للشعر دون النثر في الفكر النقدي العربي.

أما ابن رشيق فقد استهل كتابه "العمدة" بباب وسمه باب في فضل الشعر انتصر فيه للشعر، وتصدى للرد على حجج المرزوقي وغيره من القائلين بتفضيل النثر ،حيث عرض المرزوقي في مقدمته لشرح حماسة أبي تمام لقضية المفاضلة بين الشعر والنثر، فمال إلى جانب النثر وفضله محتجا بذلك بثلاثة أسباب أولها إن «الخطابة كانت أهم من الشعر لدى الجاهليين وكانوا يعدونها أكمل أسباب الرياسة وأفضل آلات الزعامة وكانوا يأنفون من الاشتهار بقرض الشعر. أما ثانيها فهو أن الشعراء حطوا من قيمة الشعر باتخاذهم الشعر مكسبا وتجارة، فمدحوا السّوقة وتعرضوا لأعراض الناس وثالثها أن الإعجاز بالقرآن لم يقع بالنظم»[5] ولهذه الأسباب كان النثر عنده أرفع شأنا من الشعر والأسباب الثلاثة التي ذكرها المرزوقي ذات بعد سياسي، اجتماعي وديني، فالحياة الفكرية العربية شديدة الوثاق مع حياة العربي على جميع المستويات، لذلك كان أثرها جليا وواضحا على قضية

المفاضلة بين الشعر والنثر. وهذا ما جعل هؤلاء النقاد يهملون طبيعتهما كفنين من فنون القول، لكل منهما وظيفته وغايته ولم يخرج ابن الأثير عن هذا الإطار، إذ فضل الكلام المنثور على الكلام المنظوم لأسباب «من جملتها أن الإعجاز لم يتصل بالمنظوم وإنما اتصل بالمنثور»[6]، أما ابن بسام فيظهر موقفه من خلال توضيحه للمنهج الذي اعتمده في كتابه "الذخيرة" إذ يقول: «وبدأت بذكر الكتّاب، إذ هم صدور في أهل الآداب»[7] فهو يعتّبر الكتاب أرفع شأنا، وأجلّ منزلة من الشعراء. إلاّ أن جون كوين اعتبر الشعر والنثر: «... وسيلتين مختلفتين للتوصيل وهاتان الوسيلتان بدورهما يمكن أن تتواجها سواء من خلال جوهرهما أو من خلال شكلهما. وهذا التوجه نفسه يظهر على مستوى كل من التعبير والمحتوى»[8] وهذا ما حاول ابن رشيق أن يبينه إذ لم يكتف بالتصدي للرد على الذين ينبذون الشعر بل وضع ثلاثة أبواب أخرى دافع فيها عن الفن الأول عند العرب ليتوصل في النهاية إلى النتيجة التي يريدها وهي تسليمه برأيه ومذهبه للشعر وتأييده، وهذا ربما راجع إلى كونه شاعرا أولا، وناقدا يفهم الشعر ويتذوقه ويرى فيه وجدانه وأحاسيسه وقوة التأثير وهذا ما لم يره في النثر، أو يحاول الانتصار للشعر كما يقول:

الشعـــــــر شيء حَسَنُ	ليس به من حَـــــــــرَجِ
أَقَلُّ ما فيـــــــه ذَهـــا	بُ الهم عن نفس الشجـــي
يُحْكِمُ في لطافـــــــــةِ	حَلَّ عقود الحجـــــــــج
كم نظرةٍ حَسَّنـــــــــها	في وجهِ عذر سَمِـــــــــجِ
وحرقةٍ يرّدهـــــــــا	عن قلب صب منضـــــج
ورحمة أوقعهـــــــــا	في قلب قاسٍ حـــــــرج
وحاجة يَسَّرهـــــــــا	عند غزال غَنِـــــــــجِ
وشاعر مطـــــــــرح	مغلق باب الفـــــــــرج

قرَّبه لسانـــــــــــــه من ملك متـــــــــــــوَّج

فعلّموا أولادكـــــــــــم عُقّار طِبِّ المهـــــــــج [9].

وهذه الأبيات دليل على أن نظرة ابن رشيق للشعر تجمع بين النظرة التقليدية (البيتين الثامن والتاسع) والنظرة العميقة المتطورة، فعنده الشعر يزيل الهم عن الشجي ويبعث الأمل في النفوس والقلوب ويقرب الحبيب إلى الحبيب ويشفي الفؤاد وهو تأكيد على وضعية الشاعر النفسية[10]. فابن رشيق انتصر لدولة الشعر على دولة النثر والكتّاب التي كان لها في عصره الغلبة والقوة، إذ كانت لسان الدولة وأداة السلاطين ولذا أدار كتابه العمدة على الشعر وموضوعاته ومحاسنه ونقده وآدابه وهذا شيء طبيعي نظرا للمكانة التي كان عليها الشعر عند العرب. وقد افتتح ابن رشيق كتاب العمدة بباب في فضل الشعر، وفيه فضل العرب على سائر الأمم لنبوغها وإعرابها في لسانها، واللّسان أفضل ما في الإنسان ودليل عقله وقلبه ثم ذكر أن كلام العرب نوعان: «منظوم، ومنثور ولكل منهما ثلاث طبقات: جيدة ومتوسطة، ورديئة، فإذا اتفق الطبقتان في القدر، وتساوتا في القيمة، ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهرا في التسمية، لأنّ كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة»[11]. وما يسترعي الانتباه في كلام ابن رشيق هو حجتّه الحسّية التي ساقها في دعم رأيه، وهي تشبيهه اللفظ بالدّر، فإذا كان منثورا لم يؤمن ضياعه وتفككه فإذا نظم كان أحفظ له، وأصون من الابتذال[12]. إلى جانب هذا يتعرض هذا الباب إلى أصل الشعر وسبب احتفال العرب به واعتماده ديوانا لعلومهم ومنتهى لحكمتهم: «وكان الكلام كله منثورا فاحتاجّت العرب للتّغني بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحـــة وفرسانها الأمجاد، وسمحائها الأجواد، لتهز أنفسها إلى الكرم وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعرا، لأنّهم شعروا به، أي فطنوا»[13]. ويتبع باب فضل الشعر

بباب في الرّد على من يكره الشعر، وقد ساق فيه جملة من أقواله: «عليه الصلاة والسلام، وأقوال صحابته، وآثار العرب ومواقفهم حول الشعر وقيمته إذا وافق الحق والصدق»[14]. كذلك بين ما للشعر من مكانة اجتماعية، فالشعر فن جميل وعملية إنشائه مهمة شاقة ومسؤولية خطيرة، وعلى هذا الأساس كان الشاعر مسؤولا عن فنه ملتزما بما يقول ويبقى الشعر بفضله ومزاياه ساريا على مر الأيام والعصور، ومكانة الشعراء في المجتمع دائمة السيرورة.

ولعل تعرض ابن رشيق للمفاضلة بين الشعر والنثر وتفضيله الشعر يقودنا إلى فهم طبيعة صراع حصل بين مؤيدين ومعارضين. غير أننا يمكن أن نسجل التفاعل الحاصل بين الشعر والنثر من خلال حديثه عن أن الشعر هو تحويل عن النثر وهذا ما أدخله جيرار جينت في مفهوم معمار النص Architexte الذي يعني: «العلاقة الصماء التي تأخذ بعدا مناصيا: أي مناصا خارجيا، وتظهر في الإشارة إلى نوع الجنس الأدبي: شعر، نثر ملحمة، رواية، بحث، سيرة ذاتية مدونة على ظهر الغلاف، من اجل تحديد النوع الأدبي الذي ينتمي إليه النص»[15] وهو تفاعل الأجناس، غير أنّ إشارة ابن رشيق تلتقي مع الفكرة القائلة بأن الشاعر يكتب نثرا ثم يجعله شعرا بإحداث الوزن والقافية. وهو المستوى المجرد من التفاعل النصّي على حد تعبير جيرار جينت.

الإحالات:

1- فيصل الأحمر ونبيل دادوة: الموسوعة الأدبية، ج2، دار المعرفة، دط، الجزائر، 2008 ص107.

2- أبو حيان التوحيدي: المقابسات، حققه: حسن السندوبي، دار سعاد الصباح، ط2، القاهرة 1996، ص245.

3- أبو حيان التوحيدي: الهوامل والشوامل، نشره: أحمد أمين والسيد أحمد صقر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، دط، القاهرة، 2001، ص308.

4- محمد ابن الحسن الحاتمي: حلية المحاضرة، ج1، تحقيق: هلال ناجي، دار الرشيد للنشر دط، بغداد، 1978، ص21، 28.

5- المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، ج1، تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل ط1، بيروت، 1991 ص16-17.

6- ابن الأثير: المثل السائر، ج3، تحقيق: أحمد الحوفي ويدوى طبانة، ط2، دار الرفاعى الرياض، 1983 ص337.

7- أبو الحسن على ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، دط، بيروت، 1978، ص32.

8- جون كوين: النظرية الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، ط1 الدار البيضاء، 1986. ص50-51.

9- ابن رشيق القيرواني أبو علي الحسن: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1، تحقيق: صلاح الدين الهواري وأ.هدى عودة، دار ومكتبة الهلال، ط1، بيروت، 1996. ص74.

10- ينظر: بشير خلدون: الحركة النقدية، على أيام ابن رشيق المسلي، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، دط، الجزائر، 1981. ص113.

11- ابن رشيق: العمدة، ج1، ص29.

12- ينظر: بشير خلدون: الحركة النقدية، على أيام ابن رشيق المسلي، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، دط، الجزائر، 1981، ص115.

13- ابن رشيق: العمدة، ج1، ص31.

14- المصدر نفسه: ص41-48.

15- سلام سعيد: التناص التراثي الرواية الجزائرية نموذجا، عالم الكتب الحديث، ط1، عمان 2010، ص48.